

معاناة الموظفين بين الأسمر وغنيم

موظفو الحكومة يستحقون الشفقة في كل زمان ومكان، فهم وقود التنمية الرخيص، وملح حياة الناس اليومية الذي يأتدمون به، وهم فوق ذلك ومع ذلك وبين ذلك كله: مادة صالحة للسخرية والتفكه والتندر، لما يبدر منهم من سلوكٍ ناب أو رد خشن، ولما يميل إليه بعضهم من حب الرشوة وأكل أموال الناس بالباطل، وقد اتخذ منهم الشعراء ورسامو الرسوم الهزلية (الكاريكاتير) مادة ثرية لاستجلاب الضحك، وتوليد النكت، واتخذ منهم كتاب القصة والمسرح – في الشرق والغرب مادة رائعة للدراما المسلية كما نرى في أقصوصة "تشيكوف" الشهيرة "موت موظف".

وقد أجاد الشعاران المتعاصران "محمود غنيم" و"محمد الأسمر" وصف معاناة الموظفين خير إجابة، فقد جمع بينهما أن كلاهما بدأ السلم الوظيفي من أدنى درجاته إلى أعلاها، فقد بدأ "غنيم" حياته الوظيفية معلماً وما زال يرتقي حتى بلغ وظيفة عميد مفتشي اللغة العربية بوزارة التربية والتعليم. وبدأ محمد الأسمر حياته الوظيفية موظفاً إدارياً صغيراً في وزارة الأوقاف حتى بلغ منصب أمين عام الوزارة.

وبين هذه وتلك من مراحل النمو الوظيفي، كانت أبيات كلا الشاعرين تتردد في الأوساط الأدبية وتذيعها الصحف على الناس فيتناقلها الطرفاء والأدباء في مجالسهم.

والشعر الفكاهي في مجال التندر بحياة الموظفين ومعاناتهم يتخذ مسارات شتى فمن شكوى غلاء المعيشة وضعف الرواتب ومن شكوى الظلم الإداري والنقل التعسفي إلى شكوى الرسوب الوظيفي وضعف الترقيات، غير أن هذه الشكاوى قد تبلغ أحياناً حد المرارة فتصبح لوناً من "الكوميديا السوداء" حين يقول محمود غنيم متحسراً على مكانة الشاعر المعلم في مجتمع يحتفي بالفن والفنانين ويدير ظهره للعلم والعلماء والشعر والشعراء فيقول:

إلى مَنْ أَشْتَكِي يَا رَبَّ ضَيْمِي؟ أرى نفسي- غريباً بين قومي!!
لقد هتفوا لـ "محمود شكوكو" ما شعروا بـ "محمود غنيم"!!

المكافأة تأخرت :

ونبدأ مع الشاعر محمد الأسمر الذي انتدب ذات مرة من وزارة الأوقاف فعمل بعض الوقت لدى وزارة الداخلية لمراقبة بعض مطبوعاتها، وتأخرت وزارة الداخلية في صرف مكافأته عن هذا العمل الذي ندبته له. فلما سأل الشاعر عن سبب تأخر صرف المكافأة قيل له إن "عبد الرحمن عمارك" وكيل وزارة الداخلية لم يوقع الأوراق، فكتب الأسمر إليه يذكره بأن طلب صرف المكافأة الخاصة به قد زكاه "الرئيس" إبراهيم عبد الهادي باشا رئيس الوزراء، ووقع عليه "توفيق صليب" مدير المطبوعات بالوزارة:

(عَمَّارُ) يَا أَخَا الْأَدَبِ لي عندكم حقٌّ وجبُ
بالأَمْسِ زَكَّاهُ (الرَّئِيسُ) (سُ) خَيْرٌ مِنْ زَانَ الرَّتَبِ

وقال (توفيتُ) دنا ما ترتجيه واقترَب
وكلَّ يومٍ لم أزل أسأله وأرتقب

ويصف الأسمر ليالي انتظار المكافأة الطوال اللاتي يخاصم فيها النوم عيني شاعرنا حتى وكأنه محب عاشق ينتظر وعداً باللقاء من حبيبة غائبة، ويتساءل شاعرنا: أين أنت يا وكيل الوزارة: أنت ما زلت في مصر، أم انتقلت إلى بلاد الشام؟! ويستصرخه باسم "الأمن" الذي يحافظ عليه في طول البلاد وعرضها، أن يدرك "أمن" جيب صاحبنا الذي أخذ في الاضطراب:

تمضي - الليالي وهي في الطُّـ
قول شبيهات الحَقَب
فقصِّر - الليل على
مُضناك وانظر في (الطَّلَب)
قالوا على الإمضاء قُلـ
تُ عجبُ أيُّ عجب
هل (الوكيل) هاهنا
أم الوكيل في (حَلَب)!!

الحضور والانصراف وكآبة الدواوين:

وكانت قد أسندت إلى الشاعر "محمد الأسمر" في أول عمله بالحكومة (وظيفة كتابية) تتعلق بحضور بعض الطلبة بالأزهر أو عدم حضورهم، وما شابه ذلك من أمور الطلبة، فقال متذمراً من سوء هذا العمل الروتيني ومرارته:

مَنْ مُجيري مَنْ (خليلٌ غائب) و(ليب) أو (سعيدٌ حاضر)
و(إجازات علي) بلغت مُتتهاها و(مريضٌ طاهر)
وفلان (راسب) أو (موقف) وفلان (أول) أو (آخر)

و(الحسابات) وناهيك إذا ضلّ أو أخطأ فيها الناظر
 و(القيودات) التي لا تنتهي فخطاب (وارد) أو (صادر)
 و(السجلات) وما قد جمعت فهي بحر وخضم زاهر
 حالة ما كنت يوماً ما لها فهي لا ينفع فيها الشاعر
 كل ميدان له فارسه حاسب أو شاعر أو ناثر

ويسخر محمود غنيم من بعض دواوين الموظفين وما يشيع فيها من خمول
 وبلادة واستهانة بحاجات الناس، ودأب الموظفين على إزجاء الوقت في القيل
 والقال، وتفننهم في تعذيب أصحاب الحاجات، وتسويق قضائها بغير عذر، ولجوئهم
 إلى الإجازات المرضية دون حاجة إليها فيقول:

دواوين شيدت للكرى والتأوب لحا الله أصناماً وراء المكاتب
 إذا أمهم ذو حاجة لقضائها فأقرب منها نيل بعض الكواكب
 هنا الوقت يمضي بين: لهو وغفلة وتسويق مطلوب، وإلحاح طالب
 وكم سلمت أجسامهم، فتمارضوا وراغوا من الأعمال روع الثعالب
 وكم رُمي الحرّ الكريم لديهمو بغلظة ساع، أو فظاظة حاجب

ثم يسخر من أخلاقيات بعض الموظفين الذين يجبنون أمام رؤسائهم
 ويستأسدون على الفقراء من ذوي الحاجات، ولا يفكرون إلا في الرواتب والعلوات
 والترقي:

نعاماً إذا هم أبصر-وا رؤساءهم سباعاً على الجمهور حمر المخالب

وما حلموا في النوم إلا برتبةٍ تُساقُ إليهم، أو زيادةٍ راتبِ
ومن زار منهم كاتباً، خال أنه بحضرة "شاه"، لا بحضرة كاتبِ
إذا خاطب الزُّورَ، صَعَّرَ خدَّه وأوما برأس، أو أشار بحاجبِ
ولو فتشوا عما حوته جيوبُهُ لما اغترَّ مغترُّ بتلك المناصبِ

الكادر . . ذلك الحبيب الغادر:

وفي مرحلة مبكرة من حياة محمود غنيم الوظيفية نشرت له قصيدة في صحيفة "الأهرام" عام ١٩٣٩ بعنوان (الكادر) سخر فيها من تقدير الحكومة على موظفيها البائسين، حتى إن الآباء الموظفين يوشكون على وأد أبنائهم خشية الإملاق كما كان أهل الجاهلية يفعلون:

أيها القوم، حسبكم إرهاقاً كم علينا تضيُّقون الخناقاً
هل تريدون أمة يئد الوا (م) لد فيها أولاده إملاقاً
ويحكم! لا منابع النيل غاصت لا، ولا سطح مصرَ بالناس ضاقا
ضغطوا "الكادر" الجديد إلى أن لبسته أعناقنا أطواقا
اختزال يمجئ إثر اختزال من قلوب لا تعرف الإشفاقا

ويصف الشاعر قسوة حياة الموظف الذي يتطلع إلى الترقي الوظيفي متجاهلاً أنه يعيش في بلد يتنكر لرجاله، ويضن عليهم بأيسر حقوقهم وهي العلاوة السنوية الدورية التي تتأخر دونما سبب، بلد لا يعرف الرقي فيه إلا ذوو الحساب

والنسب ممن يملكون الوسطة فيثبون إلى العلاوات وثباً، ويتعثر الذين لا واسطة لهم ويتخبطون.

قل لمن ينشد الرقيّ عزاءً إن دون الرقيّ سبعاً طباقاً!
 ما كفاكم أن العلاوة يا قو م، أطالت على الجيوب الفراقا
 كم مشينا إلى العلاوة حبواً وامتطى غيرنا إليها البراقا
 ويح مصر! أرى الموظف فيها حمّل العبء وحده فأطاقا
 قترّوا جهدهم عليه وقالوا: لا تكن ناهباً، ولا سراقا
 من ينجيّه من بنين صغار وبنات يسألته الإنفاقا؟

ثم تبلغ السخرية غايتها حين يتوجه الشاعر بالخطاب إلى زميله الموظف ساخراً طالباً منه أن ييأس من اللجوء إلى المخلوقين، ويتجه إلى الله وحده سبحانه فهو الخالق الرازق، ويطلب "غنيم" من الموظف ألا يصنع لثوبه جيوباً، فما حاجته للجيوب وهو لا يملك ما يضعه فيها؟، بل إنه ينصحه بأن يهجر الأسواق إن لا ناقة له فيها ولا جمل، وأن يتخفف حتى من الثياب إن استطاع:

أيها البائس المعذب رحماً (م) ك! دع الخلق، واسأل الخلاقا
 لا تخطُ للثياب - ويحك - جييا والزم البيت، واهجر الأسواقا
 وإذا جعت، فامضغ الصبر! ما أحد (م) سلاه في ذلك الزمان مذاقا!
 ما لكم والثياب إن أباكم (م) آدمًا كان يلبس الأوراقا
 عَلِمَ الله، لا أضن ولو أن (م) بلادي كَلَفَتْنِي الأحداقا

غير أنى على بلادي أخشى أن أرى الجوع دهورَ الأخلاقا
على أننى أرى فى البيت قبل الأخير خلاً لغويًا فى قوله "كلفنى" بنون
النسوة، وهكذا ورد البيت فى ديوانه. ويبدو أنه اضطر إلى ذلك، ولو قال (كلفنى)
بتاء التأنيث الساكنة لاختل الوزن.

رحمك أيتها العلاوة:

ويتخيل غنيم العلاوة عادة حسناء لها ما للغواني من خصال الهجر
والخصام، والدلال، وإخلاف الوعود فهو يتذلل وهى تتدلل، وتصل من لا يحتاج
لوصلها من كبار المستشارين فى الوزارة وتعرض عمن يهيمنون بها من صغار
الموظفين. وقد نشر "غنيم هذه القصيدة فى "الأهرام" يوم ٢٤ من أبريل عام ١٩٣٥م.

قد حل مايو، فاسمحي بوصالى	مُنِّي علىّ، ولو بطيف خيال
يا أختَ "عرقوب"، وعدت، فأنجزى	يكفى جفاؤك من سنين طوال
فى أى نجم نازح حجبوك أم	فى أىّ سجن محكم الإقفال؟
هل أنت إلا كالغواني، طالما	سقن الدلال على رقيق الحال؟
هيفاء، يحظى المستشار بوصالها	وتصدّ كل الصد عن أمثالى
لا همّ، لا أشكو لغيرك علتى	أنقصت من رزقى، وزدت عيالى!
ياربّ طفل جئاني، أطعمته	ما فى فمى، وكسوته سربالى
مالي أرى أموال مصر— كأنها	بعضُ الحبوب تُكالم بالميال؟
حتى إذا طلب الصغير حقوقه	شكت الخزانة قلة الأموال؟
فاز السعيدُ بعمه، وبخاله	وفقدت عمى فى الحياة وخالى!

حتى الوظيفة الكبيرة لا قيمة لها!!:

وسخر "محمود غنيم" من الوظائف الكبيرة حين تكون كألقاب أمراء الأندلس الخاوية الخالية من المضمون. فهو حين رقي إلى وظيفة "مفتش" لم يجد لهذه الترقية أثراً مادياً في حياته، ورأى عام ١٩٤٣م، بمناسبة توليه هذا المنصب أنه زيفٌ لا طائل من ورائه مادام خالياً من الرقي المادي، فقال:

وما سرّني التفتيش حين وليته	ولا أنا - إن ولي - عليه بأسف
لقد خلّته يغني عيالي من الطوى	فكان كمضروبٍ من النقد زائف
وزارة مهضومين، ليس بقابضٍ	فتى يرتقي فيها، وليس بصارف
إذا قيل: منسيون، فتشت عنهمو	فلم ألقهم إلا رجال المعارف

وتخيل حواراً دار بينه في العام نفسه - وبين بعض الشحاذين الذين يسألون الناس في الطرقات صدقة وإحساناً، وكان هذا الموقف الطريف يروى عن الشاعر حافظ إبراهيم حين قابله شحاذ وطلب منه "حسنة لله" فقال له حافظ: "عمرك أطول من عمري" [وهي تعني في العامية المصرية أنك سبقتني في التلفظ بما كنت أود أن أقوله لك!!] لكن شاعرنا "محمود غنيم" تخيل في هذا الحوار الذي دار بينه وبين أولئك الشحاذين معنى لم يرد في عبارة "حافظ إبراهيم" الفكاهية وإن لم يبتعد عن دلالتها كثيراً:

قال لي اليوم يائسون عفاة:	أعطنا. قلت: إن أصبتم؛ فهاتوا
ثقلت وطأة الغلاء؛ فحلّت	لكبار الموظفين الزكاة
لا تروموا الزكاة منا احتساباً	نحن - لا أنتم - الجياغ العراة